الفصل الثاني

دراسة الإنجليزية اليوم
Doing English Today

- لماذا تغير منهج الإنجليزية؟
- ما دلالة هذه التغيرات؟
- ما المقصود بالنظرية الأدبية؟
- ماذا يعني لك مفهوم دراسة الإنجليزية؟

شهد العقدان السابقان طفرة في دراسة الإنجليزية حيث تحدى المدرسون والطلاب المنهج التقليدي في دراسة الإنجليزية مشيرين بذلك لوجود طرق أخرى مهمة لقراءة ودراسة الأدب تجتمع كلها تحت مصطلح واحد هو "النظرية الأدبية". لكن لماذا حدثت كل تلك التغيرات؟

تغير النظرة العالمية يعني تغير الإنجليزية
Changing World Views, Changing English

كانت العلاقة وثيقة بين دراسة الإنجليزية والحاجة لتحضر الناس وتزويدهم بالقيم عن طريق دراسة الأدب. و بالرجوع لتطور منهج اللغة الإنجليزية في الفصل الأول، أصبح من الواضح أن هذا الاتجاه قُصِدَ به تسييس الناس وصبِّهم في 'قالب'

يدعى "إنجليزية التحضر". لكن العالم الذي نعيش فيه الآن ليس نفس العالم الذي عاش فيه ليفيز ورفاقه الذين صاغوا مادة اللغة الإنجليزية، فبينما أراد هؤلاء المؤسسون أن يتشابه الناس، نشجع نحن الآن الاختلاف ونحتفي به. وبينما قدموا هم حقائق وإجابات شافية، ندرك نحن الآن ندرة وجود الحلول الواضحة والقرارات النهائية، ونشعر بالشك نحو كثير مما اعتبروه هم مسلمات ثابتة. لذلك إذا كانت النظرة العالمية تتغير، فإن نظرتنا للإنجليزية يجب أن تتغير بالتبعية، وهو ما تفسره قضية التأويل.

فهم التغيرات: القراءة والتأويل
Understanding the Changes: Reading and Interpreting

إن فهم الأدب ليس بالعملية البسيطة، فدراستنا لشيء ما تعني قراءتنا واستخدامنا لأدوات محددة للوصول لمعنى ذلك النص -سواء أدركنا ذلك أم لم ندركه- وهو ما تقوم به عندما تقرأ رواية أو قصيدة أو مسرحية، بمعنى أنك عندما تقرأ نصاً أدبياً وتفكر فيه أو تكتب عنه بشكل أو بآخر، فإنك تقوم بعملية تأويل. حيث أنك تركز على أشياء مهمة دون غيرها فتتبنى أفكاراً ورؤىً وتستثني أخرى. أي أن قراءتنا لنص لا تتم في فراغ دون هدف محدد، بل إننا ننقل أفكارنا وأهواءنا وميولنا -أي ذواتنا- إلى النص مما يدل على أن القراءة والتأويل سواء، وأميل إلى استخدامهما كمترادفين في ثنايا هذا الكتاب. كما آثرت استخدام كلمة نص بدلاً من كتابة رواية أو قصيدة أو مسرحية، وذلك لأهمية مدلول مصطلح التأويل، بالإضافة إلى أن كلمة نص تدعم عملية التأويل، فالنصوص ما هي إلا أشياء يتم تأويلها (لا يقتصر الأمر في دلالة كلمة "نص" على الأدب، بل تتخطى ذلك

لتشمل أفعال الناس وبرامج التلفاز والموسيقى لأنها نصوص قابلة للتأويل مثلما تقوم بتأويل الأخبار عندما تشاهدها أو تسمعها أو تقرأها وعندما يجمعها الصحفيون فكل هذه الصيغ تدعى "نصوصاً").

لا يوجد ما يمكن أن نسميه بالتأويل المحايد أو الموضوعي فلا تأويل بلا انحياز أو هوى، وعندما تقوم بتفسير رواية أو قصيدة أو مسرحية أو ما على شاكلتها مثل إعلان تليفزيوني أو فيلم، يقوم هذا التأويل على عدد من الأفكار المسبقة التي تمثل الأفكار الثابتة والأهواء والميول التي تشكل ذاتك ولا تستغني عنها البتةً كنظارة القراءة التي لا يمكن أن تخلعها حال القراءة. لذلك يتأثر تأويلك للنص بالسياق الذي تقرأه فيه وبتوقعاتك عنه بشكل مباشر، فإذا كنت تقرأ رواية عن الحرب العالمية الثانية لتعد مشروعاً بحثياً في مادة التاريخ، فسيختلف أسلوب تفكيرك بالطبع عما إذا كنت تقرأها بغرض التسلية. أما على المستوى غير المباشر، فإن تفسيرك هذا يعتمد بدرجة كبيرة على مشاربك الثقافية ونظرتك لذاتك وللآخرين وللعالم، والتي تعد مسلمات حتى ولو لم تقصد ذلك. يفسر ذلك المنطلق الاختلاف الكبير بين الناس لاختلاف طبائعهم وخبراتهم وعقائدهم الدينية وطبقاتهم الاجتماعية... الخ؛ فكل شيء قد قرأته مسبقاً يؤثر على تأويلك الحالي. ويمكن تلخيص ذلك كله بالقول بأن لكل شخص مكانه في هذا العالم والذي لا يستطيع أن يفر منه تماماً كما أنه لا يستطيع أن يقفز أعلى من ظله. لكن ما مدلول تلك الأفكار بالنسبة لطريقة ليفيز التقليدية في دراسة الأدب؟

يرى ليفيز أن:

- تدريس الإنجليزية "رسالة حضارة".

لكن: هذا 'التحضر' ما هو إلا عملية تسييس للناس وفق نموذج ثابت (أو قالب) للقيم والأفكار والآراء على"النمط الإنجليزي"، وبما أن العالم قد تغير فإن هذا الهدف لم يعد محلاً لثقة الكثيرين.

- يجب دراسة الرواية أو القصيدة أو المسرحية و'الحكم عليها بشكل موضوعي'

لكن: لا يوجد تفسير موضوعي ولا حكم محايد غير متأثر بالأهواء الشخصية.

- يجب أن يتسم رد فعل القارئ على ما يقرأ من نصوص 'بالطبيعية' naturalness.

لكن: لا يوجد رد فعل 'طبيعي' تجاه الأدب كما هو واضح من حقيقة تدريس الإنجليزية. وعلاوة على ذلك، إذا افترضنا أن النص الأدبي يجب أن يحرك فيك شيئاً، فما هي معايير هذا النص وكيف يؤثر عليك. إن الفصل في هذه الأمور بعيد كل البعد عن الحيدة.

- 'النقد العملي' هو قراءة موضوعية علمية للأدب.

لكن: لا توجد طريقة موضوعية لقراءة الأدب لأن كل قارئ يتأثر بمشاربه وخلفياته عند القراءة، فكل قراءة تتمخض عن ناتج مغاير لسابقاتها باختلاف القراء.

- توجد قائمة 'بالأعمال الأدبية المرجعية' التي يجب على كل فرد أن يدرسها.

لكن: يفترض ذلك إمكانية وجود حكم محايد ثابت على قيمة العمل الأدبي ولا تهب عليه رياح التغيير.

• تهدف قراءتنا الوصول إلى 'القيمة الفنية الذاتية' للنص الأدبي.

لكن: مَن الذي يحدد تلك القيمة؟. ألا يؤثر السياق الخارجي على تلك القيمة الفنية؟ فالحكم على القيمة الداخلية يعتمد بالضرورة على السياق الخارجي.

وكما ترى فإن طريقة "ليفيز" ومنهجه لدراسة الأدب يَعتبِر أموراً كثيرة من المسلمات و أننا جميعاً 'يجب' أن نفكر ونقرأ ونصدر أحكامنا بنفس الطريقة، فإذا كنا جميعاً نفكر على هذا النحو، فستكون هناك طريقة واحدة صحيحة لقراءة النص كما هو مبين في الشكل رقم (٢,١).

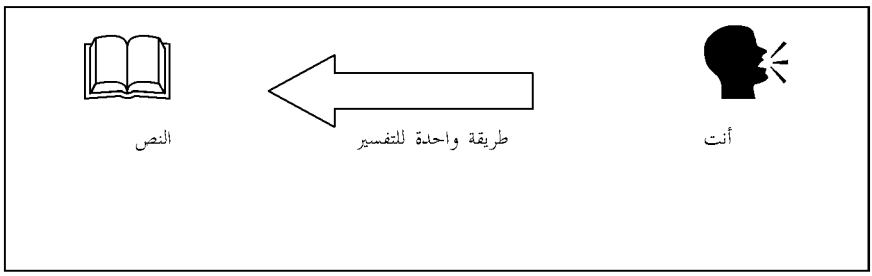

الشكل رقم (٢,١). الطريقة "التقليدية" لتفسير النصوص.

على الرغم من أن طريقة ليفيز تَدَّعي الموضوعية و الطبيعية، إلا أننا إذا أمعنا النظر فيها نجد أنها طريقة ثابتة أحادية، وبإمكانك أن تقتفي آثار تلك الطريقة في مقررات الإنجليزية التي درستها أو في المناظرات الأدبية التي تتخذ من وسائل الإعلام ساحة لها، لكن —وكما أوضحت آنفاً— تتجه كثير من أصابع الشك والتساؤل إلى فرضيات تلك الطريقة مما أدى لظهور ما نسميه "النظرية الأدبية" على مدار آخر عشرين عاماً.

ما هي النظرية الأدبية ؟
What is Literary Theory?

يطلق مصطلح "النظرية الأدبية" على الطرق الجديدة في قراءة النصوص وهي المحور الأساسي لمقررات الإنجليزية الجامعية. ولقد كشفت دراسة مسحية حديثة أجراها مجلس المقررات الإنجليزية في المستوى الجامعي على كل أقسام اللغة الإنجليزية الجامعية في المملكة المتحدة أن أربعة طلاب من بين خمسة قد درسوا مقرراً إجبارياً عن النظرية الأدبية في عامهم الجامعي الأول، كما اعتبر ثلاثة أرباع الطلاب أن الإلمام بالنظرية الأدبية أمراً ضرورياً، بينما رأى الربع المتبقي أنها دراسة مرغوب فيها، لكن ما هي تلك النظرية؟

النظرية الأدبية هي مصطلح عام يتضمن مجموعة ضخمة من الطرق الجديدة والمختلفة لقراءة وتأويل النصوص، لذا فمن الأكثر دقة تسميتها "النظريات الأدبية"، لأنه ليس من المهم أن تصل هذه الاتجاهات المختلفة إلى نقطة التقاء. و بالإشارة إلى "الطريقة الأحادية" للتأويل، فإن هذه الاتجاهات الأدبية الجديدة تعكس اهتمامات وأفكار قطاع عريض من الناس وليس فقط من نطلق عليهم الصفوة الإنجليزية المثقفة، مما يعني أن طرق القراءة المهمشة أو التي كان ينظر إليها على أنها خاطئة بسبب تأثير النموذج الإنجليزي التقليدي الأحادي قد عاودت الظهور من جديد بشكل متطور. كما دخلت أفكار مهمة ومؤثرة من حقول دراسية أخرى: فالإنجليزية المعاصرة ترتبط بالتاريخ والسياسة والدراسات النسوية وعلوم المجتمع والدراسات القائمة على النوع gender studies واللسانيات والفلسفة...الخ. عندما تبدأ في دراسة النظرية الأدبية، فستسمع بلا شك عن المذهب التاريخي historicism والسياسة الثقافية cultural politics والدراسات

النسوية feminisms وباقي النظريات التي انبثقت عن هذه الأنظمة المعرفية. وقد تطورت طرق جديدة للقراءة من مادة الإنجليزية نفسها كردة فعل للاتجاه التقليدي الضيق الأفق في دراسة الأدب، وستظهر هذه التغييرات بصورة أوضح إذا ما أعدنا صياغة الشكل رقم (٢,١) لتمثيل النظرة التعددية لدراسة الإنجليزية. انظر الشكل رقم (٢,٢).

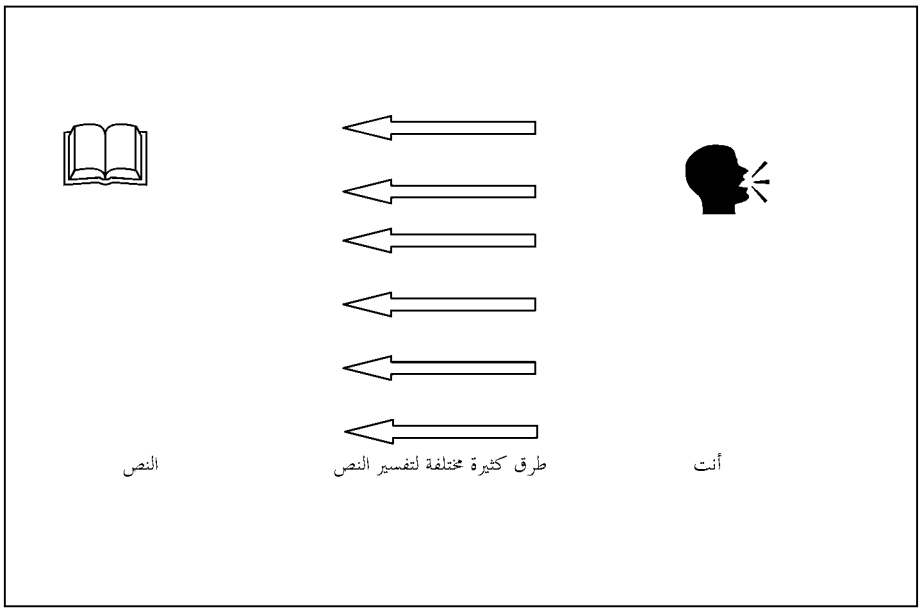

الشكل رقم (٢,٢). طرق التفسير المختلفة للنص.

ومن ثم فإن لُب النظرية الأدبية يتمثل في الاعتقاد بأن كل طريقة للقراءة تنتج عنها افتراضات وأيديولوجيات، والأهم من ذلك عدم وجود طريقة واحدة صحيحة للقراءة. لكن ما هي أوجه الاستفادة من النظرية الأدبية؟

استخدام النظرية
Using Theory

إن فهم ماهية الإنجليزية وما نفعله عندما ندرس الإنجليزية يقرِّب الأدب إليك عزيزي الطالب، فمن حاولوا صياغة الإنجليزية كمادة يتم تدريسها في المدارس والكليات والجامعات حاولوا أيضاً تدريس الأدب والفن والحياة دون الاعتراف بأن الطريقة التي استخدموها تتعامل مع بعض الأفكار كمسَلَّمات، وغالباً لا يُظهِرون أن الإنجليزية تتبع "طريقة منظمة" لكن يفرضون طريقتهم في القراءة على أنها "الطريقة الوحيدة" مما يعني أن إجاباتك في الاختبارات والمقالات التحليلية التي تقوم بها للنصوص ليس لها علاقة بما تشعر به حقاً أو تفكر فيه، الأمر الذي يثير فيك الحيرة ويصيبك بالإحباط.

يمكنك أيضاً أن تفكر في التساؤلات التي تُكَوِّن تفسيرات الآخرين، فإذا كنت تستمع إلى مدرس أو محاضرة أو تقرأ الأفكار الموجودة في عمل أدبي، فاسأل نفسك ما هي الأسئلة الضمنية التي يجيب عنها النص الذي بين يديك؟ وبالكشف عن تلك الأسئلة ستتعلم الكثير عن الطريقة المنظمة في التفسير وعن كل ما يمثل أهمية لهذا الشخص، وستمثل الأسئلة التي لم يتم الإجابة عليها أو لم تظهر البتة التحدي الأكبر لك أثناء القراءة. بمجرد أن تصل لهذه المرحلة يمكنك أن تقرأ النص وفي جعبتك العديد من الأسئلة المتعلقة بتأويله وبالأسلوب الذي تنتهجه المدارس النقدية في تأويلها لنفس النص حيث سيظهر في إحداها ما لم يوجد في الأخرى مما يؤدي إلى تكامل الصورة لديك.

لا تَدْعو الحاجة لأن تتفق كل هذه النظريات حول شيء واحد، لأن الواقع العملي أثبت أن الإبداع وتوليد الأفكار الخلاقة تنشأ من اختلافها. علاوة على ذلك، فإن تلك النظريات لا تمثل جزءاً من "النظرية الخارقة" super theory أو النظرية الموحدة لكل شيء، بل على العكس فلكل نظرية طريقتها في التأويل، كما يتيح وجود الكثير من المدارس النقدية المختلفة المقارنة لمعرفة أوجه التشابه والاختلاف فيما بينها. وإذا كانت الإنجليزية تهتم بقراءة النصوص بطرق مختلفة فهي تُعنى أيضاً بتفسير تلك الطرق ومعايير اختيارها. أي أن مقرر الإنجليزية ليس مجرد قراءة للأدب فقط، بل يتضمن دراسة طرق القراءة، ويتضح ذلك جلياً في المخطط التالي الذي أضفنا فيه سهماً آخراً يمثل بؤرة التأويل ذاتها التي يطلق عليها علم الهرمنيوطيقا أي "دراسة عمليات التأويل" Hermeneutics وهو ما يشير إليه السهم الإضافي في الشكل رقم (٢,٣).

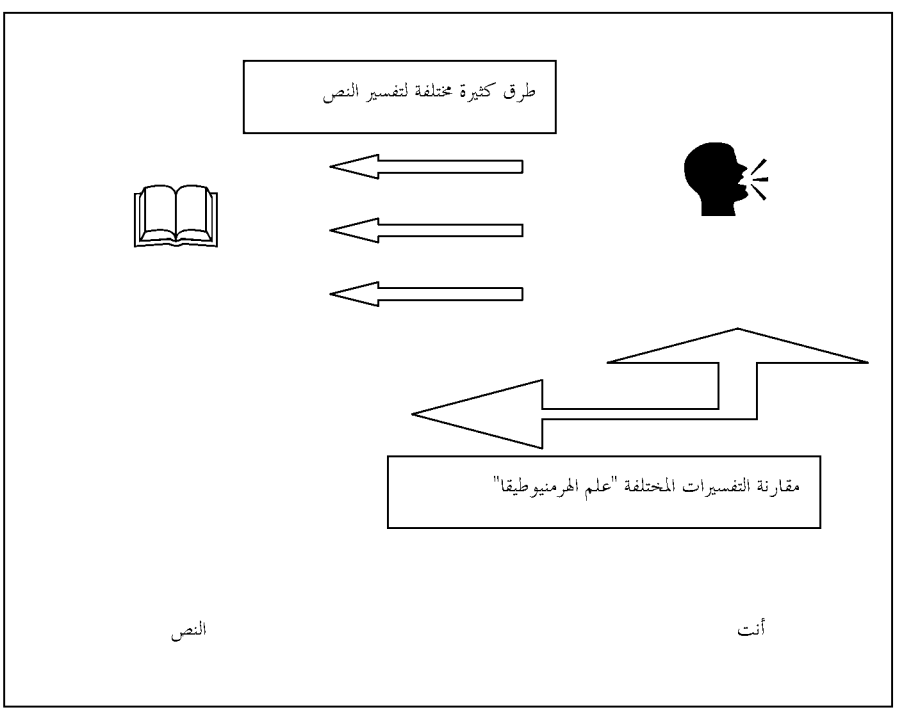

الشكل رقم (٢,٣). دراسة الإنجليزية اليوم.

يعد إدراك أهمية القراءات المختلفة للنص (في إطار النظرية الأدبية) –والتي لا تقل أهمية عن مضمون ما نقرأ– من أهم التجديدات التي طرأت على دراسة الأدب في العشرين أو الثلاثين عاماً المنصرمة، فلقد غيرت تماماً مقرر الإنجليزية كمادة دراسية ونفخت فيها روح الحياة من جديد.

ما أهمية ذلك بالنسبة لك؟

What does this Mean for you?

لا تقتصر دراسة الإنجليزية في معظم الجامعات على قراءة النصوص الأدبية فقط، بل تتضمن تعلم تأويلها بطرق شتى وفهم تلك الطرق ليكشف بذلك عن اهتمامات الآخرين وما يمثل أمراً حيوياً لهم، مما يخلق طرقاً مثيرة لقراءة النصوص ويجعلك تراجع طريقة نظرتك للعالم وموقعك فيه؛ فإدراكك للآراء المختلفة لقراءة النص يغير أفكارك عنه كما يعيد تشكيل موقعك في هذا العالم كذلك. وبذلك يمكن للإنجليزية أن تجلب أفكاراً للنور، بل وتوجه أصابع الاتهام لأفكار كانت تعد مسلمات. ولهذا السبب يرى كثيرٌ من النقاد والمعلمين أن هذا النوع من التساؤل والقراءة بناءً على منطلقات نقدية مختلفة هو المحور الأساسي في دراسة الإنجليزية وهو ما يجعل –في رأيي– الإنجليزية مادة ذات قيمة عالية تستأثر فيها النظرية الأدبية بمكانة مهمة.

لكن من سوء الطالع أن التغيرات لا تحدث بسهولة، فعلى مدار العشرين أو الثلاثين عاماً الماضية أدت القضايا التي أثارتها النظرية الأدبية إلى مناقشات محتدمة

وانقسامات رهيبة بين طلاب اللغة الإنجليزية ومدرسيها في المدارس والكليات والجامعات في جميع أنحاء العالم الناطق بالإنجليزية، مما أدى إلى فجوة بين مقررات الإنجليزية في المدارس الثانوية ومقرراتها في التعليم العالي وهو ما أشرت إليه في المقدمة. و على الرغم من تغير موقف الإنجليزية في السنوات القليلة الماضية، إلا أن كثيراً من الطلاب الذين تدربوا على قراءة النصوص بالطريقة التقليدية الأحادية مازالوا يواصلون بحثهم الحثيث عن "الإجابة الصحيحة الوحيدة".

ملخص

Summary

تتضمن دراسة الإنجليزية قراءة الأعمال الأدبية وتعلم تفسيرها بطرق مختلفة وكذلك فهم كيفية الوصول للمعنى مما يتيح قراءات جديدة للنصوص تجعلك تفكر في الطريقة التي ترى بها العالم وموقعك فيه. لكن يجب أن تكون حراً في اختيار إحدى تلك الطرق، كما يمكنك أن تجرب عدداً منها مجتمعة.

• تغيرت الإنجليزية على مدار العشرين عاماً الماضية وهو ما يتجسد جلياً في قضية التأويل. فقراءتك للنص تعني تفسيرك له، ولا يوجد تفسير محايد أو موضوعي لأننا جميعاً نتأثر بمشاربنا المختلفة.

• "النظرية الأدبية" هي مصطلح عام لعدد كبير من الطرق الجديدة المختلفة التي نقرأ ونفسر بها النصوص عاكسة بذلك اهتمامات وأفكار قطاع عريض من الناس وليس فقط الصفوة المثقفين الإنجليز مما يشجعنا على مراجعة طريقة تفسيرنا للنصوص.

- تشجعنا النظرية أيضاً على مقارنة ودراسة طرق التأويل المختلفة وهو ما يسمى بالهرمنيوطيقا أي دراسة عمليات التأويل ذاتها.
- إن الطريقة التي نقرأ بها النصوص لا تقل أهمية عن محتوى النص ذاته، أي أن سؤال "كيف نقرأ ؟" مساوٍ في الأهمية لسؤال "ماذا نقرأ ؟"